بسم الله الرحمن الرحيم

مدارس
التجديد في الشعر العباسي
وأثـرهـا
فى نـهضة الشعر العربـى

الأستاذ الدكتـور

عبد الله حسين علي سليمان

أستاذ الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالإسكندرية

تمهيد :

مدارس التجديد :

وأعنى بالمدارس تلك المذاهب والاتجاهات الفنية ذات الطابع الخاص التى نشأت نتيجة لعوامل ومؤثرات خاصة وكان لها بدورها تأثير فعال فى الأدب العربى واتجاهاته فى عصوره المختلفة .

ومدارس التجديد مذاهبه الخاصة الملتزمة ذات الطابع المتميز والمتأثرة فعلاً بما سبقها والمؤثرة بالضرورة فيما يأتى بعدها من مذاهب واتجاهات .

وتقوم زعامة هذه المدارس بدور الأستاذ المعلم والرائد المجدد الذى يمهد السبيل ويترك عليها معالم وضاءة تكون نبراسا للأجيال من بعده جيلا بعد جيل . ويكون التابعون لهذه المدارس بمثابة التلاميذ يتخرجون على هذا المنهج والأسلوب متأثرين به وملتزمين بأصوله ومعالمه .

وقد يقف هؤلاء التلاميذ عند حدود مدارسهم لا يتجاوزونها وقد يطورون ويجددون بما لا يخرج عن الطابع العام لهذه المدارس ، أما إذا تجاوز التطوير والتجديد حدود الطابع العام إلى خصائص متميزة ملتزمة فإن ذلك يكون بغير شك نواة مدرسة جديدة لها كيانها الذاتى وملامحها الخاصة وخصائصها المميزة ، والفواصل والحدود فى هذا المجال دقيقة للغاية يحتاج البحث فيها إلى مزيد من التأمل والتبصر وكثير من التفهم والدراية والتعبير بلفظ مدارس وإن كان حديثا إلا أن العرب قد فهموا حقيقته ومضمونه من وقت بعيد فقد أدركوا أن لكل شاعر

منهجه وأسلوبه وطريقته الخاصة به ... فزهير - مثلا - على رأس مدرسة خاصة قوامها تهذيب الشعر وتثقيفه وتجويده وعدم الرضا بأول ما يرد على الخاطر . (١)

كما أدركوا المنهج الخاص بجرير وأنه مخالف لمنهج الفرزدق فقالوا " هذا يغترف من بحر وذاك ينحت من صخر " (٢) . كذلك أدركوا القيمة الفنية لشعر بشار فأطلقوا عليه لقب " أستاذ المحدثين " الذى عنه أخذوا ومن بحره اغترفوا وأثره اقتفوا (٣) . بل إنهم أدركوا الأصول التى ترجع إليها مذاهب التجديد وحددوها وأشاروا إليها ونبهوا عليها فقالوا عن الوليد بن يزيد وشعره الذى برز فيه " أما الفن الذى برز فيه الوليد حتى لكأنه فتح به فى الشعر الإسلامى فتحا فهو شعره فى الخمر ، هو ما برز فيه وتبعه الناس جميعا فيه وأخذوه منه " (٤) وشعره فى وصف الخمر هو الأصل الذى اشتقت منه معانى الشعراء الذين قالوا فى الخمر وعلى رأسهم أبو نواس والحسين بن الضحاك . (٥)

وكانت معرفتهم بهذه المدارس مدخلا للتعرف على خصائصها واتجاهاتها والموازنة بينها ووضع الشعراء فى مجموعات وطبقات متماثلة تسهل دراستها بعد دراسة وافية لكل شاعر والموازنة بينه وبين غيره وتحديد منزلته بين الشعراء وما أخذه من غيره وما أخذ منه . (٦)

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨ .
(٢) الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين ص ٨٣ .
(٣) الموشح للمرزبانى ص ٢٥٠ .
(٤) الأغانى جـ ٦ ص ١٠٦ .
(٥) نفسه ص ١٠٧ .
(٦) أسس النقد الأدبى لأحمد بدوى ص ٥٥٠ .

والكتب المؤلفة فى الشعر والشعراء وطبقاتهم كثيرة وقد عنى بتتبعها والبحث عنها الدكتور خفاجى فذكر فى بعض مؤلفاته أنها تبلغ نحو خمسة وأربعين مؤلفا [1] .. منها : طبقات ابن سلام ، وابن قتيبة ، وابن المعتز . وكتاب الأربعة فى أخبار الشعراء لأبى هفان المهزمى ١٩٥هـ . كتاب الشعر والشعراء لأبى دعامة العبسى . كتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة ٢٠٩ هـ . كتاب الشعراء لعبيد الله بن أبى سعيد الوراق . وكتاب الشعراء للأصمعى ٢١٦هـ . وأخبار الشعراء للمدائنى ٢١٥هـ . وكتاب الشعراء لأبى حسان الزيادى ٢٤٣هـ كتاب الشعراء وأنسابهم لأبى جعفر محمد بن حبيب ٢٤٥هـ . طبقات الشعراء لدعبل ٢٤٦هـ كتاب الشعراء للقاسم بن سلام . كتاب الشعر والشعراء لابن المرزبان . كتاب طبقات الشعراء لابن شبة ٢٦٢هـ . كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى ٢٧٦ هـ . كتاب أخبار الشعراء لابن أبى خيثمة ٢٧٩هـ . كتاب الشعراء القدماء والإسلامية لأبى الحسن بن المنجم ٢٧٥ هـ . أخبار الشعراء لمحمد بن يحيى بن أبى منصور المنجم . الجامع فى الشعراء وأخبارهم لأحمد بن أبى طاهر طيفور ٢٨٠ هـ . الشعر والشعراء لأبى حنيفة الدينورى ٢٨٢ هـ . كتاب البارع لأبى عبدالله هارون بن على المنجم ٢٨٨ هـ . كتاب الشعر والشعراء والورقة لابن الجراح ٢٩٦ هـ . كتاب الإشارة فى أخبار الشعراء لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ٣٠٠ هـ .

ولم يكن التعبير بالطبقة يدل على مذهب خاص أو اتجاه متميز، إنماكان يعنى الجماعة من الشعراء تعيش متقاربة فى الزمان وتجرى عليهم أحكام واحدة

---

(١) ابن المعتز ص ٥٢٣ .

من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا فى المنزع أو يدخلوا فى مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك . [1] فهم نظراء يقارب بعضهم بعضا فى المنزلة الأدبية العامة وإن اختلفوا فى اتجاهاتهم الفنية ونتاجهم الأدبى .

وهم يقسمون الشعراء إلى أربع طبقات : طبقة الجاهليين - وطبقة المخضرمين - وطبقة الإسلاميين - وطبقة المولدين . ويضيف بعضهم طبقة المحدثين وطبقة المتأخرين وطبقة العصريين [2] . والشعراء العباسيون يقسمون إلى طبقات : فالطبقة الأولى هم مخضرمو الدولتين كابن هرمة وأبى دلامة والحسين بن مطير وأبو حية النميرى وسديف بن ميمون وبشار وصالح بن عبد القدوس وحماد عجرد ومطيع والسيد الحميرى ومروان بن أبى حفصة وزعيم هذه الطبقة بشار .

والطبقة الثانية نشأت فى صدر الدولة ومن شعرائها والبة وسلم الخاسر والعباس بن الأحنف وأشجع السلمى وأبو الشيص وأبو نواس والفضل الرقاشى وأبان ومنصور النميرى ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية والعتابى ودعبل والحسين بن الضحاك . وزعيم هذه الطبقة أبو نواس .

بعد ذلك يختلف النقاد ففريق يجعل أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز طبقة ثالثة . [3] وبعضهم يجعلهم طبقتين : فى الثالثة أبو تمام وديك الجن وفى الرابعة : ابن الرومى والبحترى وابن المعتز . [4] وفريق ثالث يجعلهم ثلاث

---

(١) الأدب العباسى لمحمود مصطفى ص ٤٠١ .
(٢) الريحانة للشهاب الخفاجى ص ٣١٠ ، ص٣١١ .
(٣) العمدة جـ ١ ص ٨٣ .
(٤) الأدب العباسى لمحمود مصطفى ص ٤٠٣ .

طبقات : فى الثالثة : أبو تمام وديك الجن ودعبل وابن الجهم . وفى الرابعة البحترى وابن الرومى وفى الخامسة ابن المعتز والبسامى . (١)

ولقد كان للشعر العباسى مدارسه التجديدية ومذاهبه الإبداعية التى تأثرت بالحضارة العباسية الراقية والحياة الحافلة بها فجددت وأبدعت مرتكزة على أصول تراثية لم تنفصل عنها ، وتتلمذ على زعماء هذه المدارس شعراء حملوا رسالتها والتزموا بمناهجها وقد يطورون فيها ويجددون لكنهم مع ذلك لا يخرجون على أصولها ومناهجها .

غير أننى أرى ضرورة الحذر ونحن نتناول هذه المدارس ، فليس كل من ابتكر شيئا أو سلك طريقا هو صاحب مدرسة ، بل إنه لابد من أن يكون الابتكار أصيلا يمس الجوهر والاتجاه ، رشيدا ينبعث عن حيوية وروح إبداعى فياض يستوعب تراث الأوائل ويمتزج به شعورا وإحساسا ويتفاعل معه لينتج بعد ذلك مذهبا خاصا يلتزم به ومدرسة متميزة بخصائصها يعتد بها ويلتزم بمناهجها وأصولها .. وهذه المدرسة تكون متأثرة بغير شك بما خلفه جيل سابق لكنها فى نفس الوقت تعطى لونا جديدا وفنا مبتكرا هو فى حقيقته خلاصة وراثات متعددة ومواهب ذاتية واستعدادات شخصية مما يكسبها طابعا خاصا يتأثر به آخرون ويلتزمون بمنهجه وأسلوبه ويتحركون فى نطاقه ويحلقون فى أفقه ويتألقون فى مداره . وبذلك يقوى الشكل العام للمدرسة الأدبية فتكون قائمة بأستاذها المعلم متفردة بمعالمها المتميزة حافلة بتلاميذها المنضوين تحت لوائها والمتأثرين برائدها .

كذلك مما ينبغى الحذر منه تلك الأسماء الفضفاضة التى تطلق على بعض

---

(١) العصر العباسى للسباعى بيومى ص٢٨٠ .

المدارس الأدبية وهى فى حقيقة أمرها تفتقد الدقة كما تفتقد استيعاب كل الخصائص والمميزات الممثلة للمدرسة الواحدة وذلك مثل قول بعضهم : [1]

" مذهب الصنعة ، مذهب التصنيع ، مذهب التصنع ".

وقول آخرين [2] : " المدرسة الشعبية العامة – المدرسة الشعبية الخاصة – مدرسة المحافظين أو أنصار الأوائل ... وقول فريق ثالث مدرسة البديع أو مدرسة الصنعة ومدرسة الطبع ....[3]

هذا الإطلاق يؤدى إلى كثير من الخلط والاضطراب والتداخل بصورة لايتحقق معها تحديد لنوعية هذه المدارس وخصائصها وما يمكن أن يكون بينها من فروق دقيقة وحينئذ يبقى المجال مفتوحا بين هذه المدارس ويبقى أمر إيجاد الحواجز والفوارق بين المذاهب الفنية أمرا عسيرا ، وبخاصة إذا كانت اللفظة المطلقة لها مدلولات شتى لا تقف عند حد معين أو تكون قد اتخذت لها دورة مرحلية فى الدلالة على معناها فأصبحت تطلق فى كل مرحلة على معنى خاص كما نرى فى استخدام كلمة " بديع " مثلا . وحينئذ يتحتم على الباحث الواعى والدراس المدقق أن يلوذ بالرائد العلم أستاذ مدرسته ليتخذ من اسمه راية خفاقة تنضوى تحتها مدرسته الأدبية بكل ما تمثله من ملامح وسمات . ويصبح هذا الاسم علما عليها يميزها عن غيرها ويخصصها بكل معالمها وأدق تفاصيلها . وهذا هو الاتجاه الجديد الملتزم الآن فى شتى الفنون حيث تميز المدارس بأسماء روادها طلبا للدقة وإمعانا فى استيعاب الخصائص والمميزات .

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : شوقى ضيف ص ٩ .

(٢) نجيب محمد البهبيتى : تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى ص ٤٨٣ ، ص ٤٨٤ .

(٣) محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب – محمد غنيمى هلال : المدخل .

إن إطلاق اسم الرائد على المدرسة الأدبية أجدر وأولى فى تحديد نوعية المدرسة وما تمتاز به من خصائص جامعة شاملة تتجمع وتتآلف وتتكامل لتكون فى النهاية منهجا خاصا وطريقة فنية واضحة المعالم .. فالمدرسة الأدبية إذن اتجاه فنى متكامل لا تحدده مجرد كلمة تقال أو لفظة تطلق .. وإلا فإن الحدود تبقى مفتوحة أمام من ينتمى ومن لا ينتمى بلا ضوابط ولا قيود وبغير اقتناع بانتماء من يستحق الانتماء إلى هذه المدرسة أو تلك أو حرمانه من شرف هذا الانتماء .. وفى ذلك يقول صاحب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى بعد أن أعياه الأمر " لعل فى هذا ما يجعلنا نؤمن بأن إيجاد الحواجز والفوارق المطلقة بين المذاهب الفنية أمر عسير إذ ما تزال تتداخل وتتشابك على هيئات مختلفة " [1] لقد أرادوا أن يقيموا المدارس الأدبية على أساس خاص وجانب معين قوامه الصياغة وتأليف الأسلوب .. أما المعانى وابتكارها وتوليدها وحسن التصرف فيهاوبراعة عرضها وروعة تصويرها وخصوبة الخيال وحسن التشبيه وجمال الاستعارة ودقة الكتابة وجودة الانتقال وتعدد الأغراض وتنوع الموضوعات واستحداث أنماط من موسيقى الوزن وأساليب البيان فذلك كله لا يدخل فى دائرة اهتمامهم ..... لماذا ؟ لست أدرى .....

وها هو ذا الدكتور شوقى ضيف يتحدث عن مسلم فيقول [2] " ونفس مسلم زعيم المصنعين لا نجد عنده تجديدا فى المعانى ولا ابتكارا فى الموضوعات فطرافته كلها تقف عندالتصنيع ومايأتى به من زخرف أنيق ووشى كثير " ويقول عنه فى موضع آخر [3] :

" فهو يحس إحساسا دقيقا بأنه يتناول حرفته بطريقة أخرى هى طريقة

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١١٥ .
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربي ص١١٨ .
(٣) المرجع السابق ص ١٢٠ .

المصنعين الذين يفهمون الشعر على أنه نحت وصقل ومحسنات بديعية وألوان أنيقة " كذلك رأينا بعض الباحثين يتحدثون عن مدرسة شعبية عامة أو خاصة أو مدرسة للمحافظين وهم أيضا يعتمدون فى هذا التقسيم على جانب خاص لا يتحقق به تحديد ولا يحكمه منهج دقيق [1] ..

غير أنى أعتقد أن المدرسة لا تكون مدرسة أدبية فنية معتمدة بجانب واحد من جوانبها أو بسمة خاصة من سماتها وإنما يصح أن يطلق عليها " مدرسة " بكل جوانبها وسماتها وملامحها وبكل خصائصها ومميزاتها .

لقد أرادوا أن يخضعوا شعراء العصر العباسى وما يمثلونه من مذاهب ومدارس واتجاهات لمنهجهم هذا فاصطدموا بنصوص صريحة لكبار النقاد وأئمة البيان الذين يشار إليهم بالبنان وتعد أقوالهم أقوى دليل وبرهان كماا صطدموا أيضا باختلافات مرحلية لمدلول بعض المصطلحات التى أطلقوها فتخبطوا أيما تخبط وشردت بهم الأحكام واستغلقت أيما استغلاق وظلت بحاجة ملحة إلى اقتناع بالدليل والبرهان .

إن دراسة الشعر العباسى عن طريق المدارس الشعرية هى دراسة جديدة متطورة وهى مع ذلك دراسة ضرورية لتوضيح مسار حركة التجديد فى الشعر العباسى على أسس منهجية قوية وموضوعية خالصة . وهى بهذا الاعتبار تعد أكثر دقة وأحكم تخصيصا من مجرد تتبع اتجاهات الشعر فى فترة ما فى إطار تلك الأبواب المعروفة التى طرقها الشعراء والأغراض المتعددة التى تناولوها [2] . على أن مثل هذا التتبع لا يغنى فى تحديد المدارس الأدبية ولا يجدى فى توضيح خصائص الشاعرية وسماتها لدى كل شاعر من الشعراء .

---

(١) نجيب البهبيتى : تاريخ الشعر العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى .

(٢) اتبع هذا المنهج محمدمصطفى هدارة فى كتابه : اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى .

" مدارس التجديد وأثرها فى نهضة الشعر العربى "

" تذاكر الناس يوما فى مجلس محاسن الدنيا ونزهها وأطالوا فى ذلك وكان فيهم ابن دريد الشاعر الرواية اللغوى (٢٢٣ - ٣٢١هـ) فقال لهم قد أكثرتم من ذكر محاسن الأبصار فأين أنتم من محاسن البصائر ؟ فقالوا : وما هى ؟ قال : شعر المحدثين وكتب الجاحظ ونوادر أبى العيناء " . (١)

والحقيقة أن لشعر المحدثين سحرا وفتنة ، ومظاهر روعة وإبداع ، وعذوبة وترف أداء ، وكان المحدثون بحق أصحاب نظر ثاقب وفكر متطور وثقافة متعددة وطبيعة مواتية ونفس مرهفة وخيال خصب وشعور فياض وإحساس عميق وحيوية موفورة وتفنن عجيب . وإنك لتحس فى أشعارهم فيض الشاعرية وصفاء الفطرة وجودة الصنعة وبراعة التناول وحسن العرض وروعة الجديد وقوة المعانى ودقة الأفكار وإشراقة الديباجة .

وإذا كان الشعر العربى قد بدأ عهدا جديدا على أيدى الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الدولتين الأموية والعباسية ، فقد سار الشعر - بعد ذلك - بخطوات كبيرة على أيدى الشعراء المحدثين الذين نشأوا فى العصر العباسى وأنبتتهم ظروفه وأحداثه ووجهتهم تياراته الاجتماعية والفكرية والسياسية التى كانت تعتمل فيه ، وعوامل الامتزاج والاتصال بالعناصر الأجنبية والحضارات المختلفة التى كانت سائدة والازدهار فى قمته والمدنية فى أوجها والطبيعة فى تألقها والعمران فى عنفوانه ، والحياة فى ربيعها ، والزمان فى صفوه وشبابه .... يقول الزيات : " كان

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى لمحمود مصطفى ص ٣٨٥ .

الشعر فى العصر الجاهلى أنغام صبى وحماسة فتوة وعواطف أثرة وفى الإسلام أناشيد جهاد وثوران عصبية وأطماع حياة ثم يستحير شبابه ويكتمل فى صدر الدولة العباسية فيظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما عبث شباب وأغانى طرب ومظاهر ترف "[1] ولم يكن الشعر العباسى ترفا خالصا ولهوا وطربا ولم يكن عبثا كله ... بل كان فيه الزهد والحكمة وكان فيه الفكر والفلسفة وكان فيه دهاء السياسة وعنفوان الصراع وكان فيه الروح والريحان والبهجة والنعيم ، كما كان فيه لذة العقل ونشوة القلب والشعور وسلامة الذوق وغزارة الحس وأنس الروح .

لم يقف الشعراء المحدثون عند حدود القديم ولم تكن بضاعتهم احتذاء وتقليدا بل إنهم أبدعوا وابتكروا وجددوا وأمعنوا فى التعبير عن طبيعة الحياة التى يحيونها وحقيقة الواقع الذى يألفونه ، وسلكوا إليها كل سبيل ، ابتكروا كل مذهب وساروا فى كل اتجاه وتجاوزوا المألوف وواجهوا التحدى ، وكانوا عرضة للهجوم العنيف من أنصار القديم ودعاته فقد رأينا عالما ناقدا كابن قتيبة يقرر أنه " ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيد البنان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة ".[2]

لكنهم أفلتوا من هذه القيود وانطلقوا من إسارها ومضوا يعبرون عن

---

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٤٧ .
(٢) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٢ .

أنفسهم من وحى مشاعرهم وأحاسيسهم ونبضات قلوبهم فأبدعوا وجددوا وأتوا بما لم يستطعه الأوائل ... يقول ابن الأثير " والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ؟ [1] ويبدو أن الدكتور شوقى ضيف لا يرى للمحدثين من الشعراء العباسيين قيمة فى مجال التجديد إذ يقول " فإذا المحدثون العباسيون يحتكمون غالبا إلى هذا النموذج القديم فى صنع القصيدة فهم يعددون موضوعاتها وهم لا يعنون بالربط النفسى بين أبيات الموضوع الواحد بل يستمر لكل بيت استقلاله وانفصاله حتى أصبحت مقدرة الشاعر تقاس ببيت واحد جميل يصوغه فى قصيدته وكانوا يسمونه بيت القصيد فهو كل غايتهم وغاية النقاد من حولهم " [2] .

وهذا هو نفس الرأى الذى يعبر عنه الدكتور طه حسين بقوله : " كل ما عرف العرب من اختلاف فى الشعر بين القدماء والمحدثين اختلاف فى اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد وغيره من أصحاب البديع ، واختلاف فى المعنى نشأت عنه مدرسة أبى نواس وغيره من الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد ولم يتكلفوا بديعا ... وهو على خطره لم يتغير الشعر العربى فى موضوعه ولا فى صورته ولا فى نوعه ، ولم يتغير فى لفظه ومعناه إلا تغيرا قليلا جدا ، بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى وبقى موضوع الشعر كماكان مدحا وهجاء ورثاء ووصفا وغزلا ، وانما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير ولم يكن تجددها جوهريا ولا مطردا " . [3] والحقيقة أن الإبداع والتجديد فى

---

(١) المثل الثائر القسم الثالث ص ٢١٩ تحقيق الحوفى وطبانه " .
(٢) فى النقد الأدبى لشوقى ضيف ص ١٥٥ . ط : دار المعارف .
(٣) حديث الأربعاء جـ ٢ صـ ٨ .

أشعار المحدثين من الأمور المسلم بها والتى لا يمكن أن تكون موضع شك أو جدال ... وإن أحدا من الباحثين لا يستطيع أن ينكر ما للمحدثين من أثر بالغ فى الشعر العربى عموما ودعم مذاهبه الفنية واتجاهاته الأدبية فقد سار الشعر بخطوات كبيرة على يد بشار زعيم المحدثين وعلى أيدى أتباع مدرسته الأدبية فهو أستاذ المحدثين الذين فتق لهم أكمام المعانى ونهج لهم سبل البديع فاتبعوه " [1] ....

وبشار هو رأس هذه المدرسة التى أمدت الشعراء فى عصره ومن بعده بطاقات هائلة من البيان والإبداع والتجديد مع احتفاظه بمكانته فى المجال اللغوى الأصيل والفصاحة العربية العريقة ... وقداتفق رواة الشعر ونقدته على أن بشارا رئيس طبقة المحدثين ، وشعرهم يمتاز بتوليد المعانى ودقة الأفكار ورقة الألفاظ وجمال الصنعة وتعدد الأغراض والموضوعات وتنوع الاتجاهات ، وقد اجتمع رأى المتقدمين والمتأخرين ممن يعتد برأيهم ويوثق بكلامهم على أن بشار بن برد هو حامل لواء الفحول من الشعراء المبرزين الذين لا يدرك شأوهم ولا تخلق جدة ديباجتهم ، فهو متدفق الشاعرية فياض الأسلوب رقيق الغزل مفحش فى المجون مقذع فى الهجاء مجيد فى الوصف مبدع فى التصوير بارع فى البديع متصرف فى فنون القول وأساليب الكلام .. وقد سَنَّ للمولدين طريقة متميزة بخصائصها وملامحها وأدق سماتها فهو لم يقف عند حدود ما سمع من أشعار المتقدمين ولم يقصر نفسه على متابعتهم بل إنه قد أودع شعره المعانى الحضرية المستجدة فى عصره وعبر عن مشاعر الناس وأحاسيسهم وضمن شعره حكمهم وأمثالهم وأساليبهم وإشاراتهم وطرائفهم وقال شعره فى كل غرض وكل موضوع وجدد فى

---

(١) الموشح ص ٢٥٠ ، زهر الآداب جـ ٢ ص ١٣٦ .

أسلوبه وعرضه وتصويره فحقق للشعر شعبية عريضة لفتت الأنظار نحوه وشدت الجماهير إليه ... وكان بشار من أسبق الشعراء الذين اعتنقوا مذهب اللذة وفلسفة المتعة ، وعلى إثره مضى أبو نواس ووالبة بن الحباب والحسين بن الضحاك المعروف بالخليع وغيرهم من الشعراء ....

وقد فتح بشار بابا فى التشبيه والتصوير اتبعه فيه من جاء بعده من الشعراء وساروا على هديه وترسموا خطاه ... ولم يقف بشار فى تشبيهه وتصويره عند حد المحسوس بل نراه يعمد إلى المعانى التى لا تخطر على البال فيعقد بينها ترابطا وائتلافا وانه ليتمادى فى توهمه وإيهامه فيؤثر بذلك تأثيرا قويا فى غيره من الشعراء فى مجال التصوير الشعرى وتجسيم المعنويات وتشخيصها .

وكان بشار من أجرأ الشعراء على الالتزام بالواقعية والتعبير عنها بصراحة وجرأة مهدت الطريق لمن جاء بعده من الشعراء كى يعبروا عن واقعهم بمثل صراحته وجرأته وتحديه ....

ومن مظاهر تأثير المدرسة البشارية فى الشعر العباسى تلك السهولة المتدفقة والشاعرية الفياضة ، والتوسع فى تحقيق معنى الشعبية شكلا ومضمونا والتوسع فى الأوزان والإبداع فيها والميل الى القصير منها وسهولة المأخذ ويسر الأداء والإفلات من أسر التكلف ومزالق التعقيد وإحكام الترابط بين الأبيات إحكاما بارعا ....

ولم يكن بديع بشار زخارف لفظية ومحسنات بديعية ، وإنما كان بديعه تصويرا رائعا وتشبيها جيدا واستعارة جميلة ومعنى لطيفا وتفننا فى عرض وسائل التعبير وبراعة الانتقال بين المعانى والأفكار وحسن الابتداء وقوة التأثير وإحكام

النسج وجودة التأليف بين الألفاظ والعبارات وقد تأثر الشعراء به وترسموا خطاه فكانت أشعارهم مثلا يحتذى فى البراعة والروعة .... وهكذا كان تأثير بشار ومدرسته فى الشعر العربى تأثيرا بالمنهج والأسلوب ... بالمعنى والفكرة ... بالخيال والصورة ... بالطرافة والبراعة ... بالابتكار والتجديد ، بالتصرف والاشتقاق ... بالتفريع والتوليد ... بالإيهام والإيغال ... باللمحة والخاطر ... بالبديهة الحاضرة والطبيعة المواتية ... بالصراحة والجرأة والتحدى الذى لا يلين .

وكان لهذه المدرسة البشارية كذلك أثر بالغ فى المحافظة على جودة الأسلوب وفصاحته والالتزام بمتانة الأداء وبراعته وإحكام النسج وجمال الصياغة والاهتمام بالقيمة الحقيقية للشعر ومراعاة تصويره للجوانب الحيوية فى حياة الإنسان ودنيا الناس وطبيعة المجتمع ومظاهر الحضارة ، والالتزام بأسلوب إبداعى يتجه اتجاها أصيلا نحو السهولة واليسر وينبذ نبذا تاما مظاهر التكلف والغموض والتعقيد .

لم يكن بشار بمنهجه وأسلوبه بعيدا عن الشعراء فى عصره وبعد عصره فقد كان تأثيره فعالا على كثير من الشعراء الذين أولعوا بطريقته وحققوها فى نماذجهم ولقد صاغ هؤلاء الشعراء أساليبهم على مثال حضارة الدولة وثقافتها وطريقة تذوقها للفنون فلا بدع أن يصير الأسلوب الشعرى إلى الرقة فى النسيج والدقة فى التصوير والجودة فى التعبير والبراعة فى استخدام ألوان من الزينة والزخارف وأنماط من موسيقى الشعر التصويرية تهز العواطف وتثير المشاعر وترهف الإحساس .

ومن بين هؤلاء الشعراء أبو نواس الذى سار شعره واشتهر أمره وأقبل الناس على روايته ورأوا فيه صورة صادقة لبعض جوانب الحياة والمجتمع والعصر

وراقهم ما فيه من ظرف وفكاهة وخفة روح ولهو وعبث وكانت له بذلك مكانته ومنزلته فى القلوب .

وكان للاتجاه النواسى فى إطار المدرسة البشارية تأثير فعال فى الحركة الإبداعية الماجنة التى شاعت فى الشعر العربى بنمو واطراد فى مجال الفكاهة والمرح والظرف وخفة الروح .

وكان مسلم بن الوليد علامة مميزة على الطريق بين بشار وأبى تمام فقد أتاح الفرصة لأبى تمام من بعده كى يصل بالصنعة إلى قمتها وبالبديع إلى مداه " فهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريع والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس " [1] . وبذلك كان أبو تمام البداية المنظمة فى فن الصناعة والزخرفة بعد حركة البديع والجديد التى قادها وأرسى دعائمها بشار زعيم المجددين .

وقد شارك أبو العتاهية بشارا فى هذه الشاعرية الفياضة والطبيعة المواتية وكان أبو العتاهية فى بساطته وسهولة شعره يمثل ظاهرة عامة تكاد تكون سمة بارزة من السمات المميزة للشعر العباسى واتجاها ملتزما ترك أثره على الشعر العربى من بعده ... بل إن أبا العتاهية كان بخروجه على العروض وعدم التزامه بقواعده ونظمه على أوزان جديدة لا تدخل فى العروض قد فتح طريقا أمام الشعراء من بعده لاستحداث أوزان جديدة والخروج على المتعارف المألوف من قيود الأوزان والقوافى ... وكان أبو العتاهية على رأس الشعراء الذين أشاعوا طريقة السهولة والبساطة واليسر فى الشعر العربى وحققوا بذلك شعبية واضحة فى الأسلوب

---

(١) الريحانة للشهاب ص ٣٠٥.

الشعرى ... ويقرر " نيكلسون " أن أبا العتاهية قد برهن لأول مرة وربما لآخر مرة كذلك فى تاريخ الأدب العربى الكلاسيكى أنه من المستطاع أن يستعمل الشاعر اللغة العادية البسيطة دون أن يفقد بذلك صفة الشاعرية " (١) .

والواقع أن أبا العتاهية لم يكن أول من سلك هذه السبل ولا آخرهم لكنه بلا جدال قد وصل فى طريقة السهولة هذه إلى أبعد مدى وجاوز كل غاية . كما أنه قد فتح بابا فى الشعر العربى على مصراعيه أمام الشعراء من بعده ممثلا فى شعر الزهد والحكمة وتذكيره بالموت ووحشة القبر وكانت له بذلك منزلة خاصة لدى جماهير الناس وكثير من نقاد الشعر ورواته الذين يؤثرون أدبه ويقدرون منهجه ومذهبه ...

وإذا ما انتقلنا إلى أبى تمام وجدنا أن مدرسته كانت تمثل القمة العظمى التى وصل إليها الشعر العربى بعد أن أخذ شكله النهائى وطبع بطابعه الخاص على يدى أبى تمام وقد حملت هذه المدرسة بنور التجديد التى تناهى اليها الشعر العربى فى العصر الحديث من عمق المعانى وغزارة الأفكار ودقة الرمز وقوة الإيحاء والتأملات الفلسفية والتجسيم والتشخيص والغموض والخفاء والميل القوى إلى الإبداع والتجديد وقد حققت بذلك دعامتين من أقوى الدعائم فى الأدب العربى وهما الأصالة والخلود .

وقد فتح أبو تمام طريق الحكمة والمثل أمام الشعراء من بعده ، وحكمه وأمثاله من وحى خبراته وتجاربه وقوة إحساسه بأحداث الحياة وصروف الدهر وعبرة الزمن ، كما أنها كانت من وحى ثقافته ومعرفته وسعة إدراكه وتأثره

(١) دراسات فى الأدب الإسلامى ص ١١٠ .

بالدراسات الفلسفية والمنطقية التى شاعت فى العصر العباسى الأول وازدهرت بعد ذلك ازدهارا عظيما ...

والنزعة القومية والدينية ماثلة فى شعر أبى تمام فهو يمجد البطولة العربية ويشيد بها ويعلى راية العروبة ويرفع قدرها ويهون من شأن أعدائها ويضمن شعره إشارات وشواهد تدل على ما للصفات العربية من أصالة وعراقة وما للعرب من فضل وقدر ، كما أنه يشيد بالجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ، وقهر الكفر وإذلاله وهو يربط ذلك كله بالأمجاد الإسلامية الخالدة .. وقد فتح بذلك بابا عظيما من أبواب الشعر يتغنى فيه بالبطولة ويشيد بالقومية ويثير الحماس الدينى والنخوة العربية لإعلاء كلمة الحق والدفاع عنه والتصدى للظلم ومقاومة الطغيان .

وقد ظلت مدرسة أبى تمام مؤثرة بمنهجها وأسلوبها وأصولها ومقوماتها من الإبداع والتصوير وألوان الزخارف وضروب التحسين وإحكام الصياغة الفنية الممتزجة بالفكر والفلسفة وأنماط الثقافة المختلفة ووجوهها المتعددة .

وقد حاول شعراء القرن الرابع الهجرى أن يقلدوا أبا تمام ويجاروه فى مذهبه وصنعته ، لكنهم قصروا وعجزوا عن اللحاق بفن أبى تمام وبدلا من أن يجاروه باقتدار وإبداع لجأوا إلى التكلف والغموض والتعقيد والتلاعب بأنواع المحسنات دون أن تعطى مضمونا أو تبعث فى النص نبضا وروحا . وكثير من النقاد يلقون التبعة على أبى تمام لأنه - فى رأيهم - هو الذى قاد الشعراء ودلهم على هذه السبيل فتكلفوا من بعده وعقدوا وأغربوا وتمادوا فى التكلف والتعقيد والإغراب وسلكوا سبلا ملتوية لا تخلق فنا ولا تبدع شعرا ، وحاولوا أن يكونوا تماميين فلم يستطيعوا أن يدركوا شأو أبى تمام .. فى أبعاد أعماقه وامتداد آفاقه ودقة فلسفته وروعة تصويره وأصالة فنه ..

لقد كانت مدرسة أبى تمام هى المدرسة الجامعة بين التراث العربى فى أصالته وفصاحته ومتانة أدائه وقوة أسلوبه وجودة صياغته ، وبين الجديد الطريف فى فكره وفلسفته وبديعه وتصويره وبراعة عرضه وبما فيه من دلائل الفطنة وشواهد الذكاء وحسن التصرف وغزارة الشاعرية وعظمة الاقتدار . لقد كان لهذه المدرسة أثر كبير فى الشعر العربى فهى القمة العالية والنموذج الفذ والمثل الرفيع الذى يحتذى ويتبع ، وهى التى تمثل بصدق الصورة النهائية التى وصل إليها الشعر العربى فى أزهى عصوره ، كما أنها هى التى أثرت فى توجيه الشعر وجهة عقلية فلسفية فى أنماط التفكير ووسائل التعبير وضروب التخييل والتصوير والتطبيق والتجنيس ، وقد هيأت بذلك سبيل الرمز والإيحاء والغموض والخفاء ، وفتحت بابا رحبا من أبواب الشعر العربى قوامه تلك التأملات النفسية والفلسفية فى الطبيعة والحياة وصروف الدهر ومأساة البشر ، كما كان لها أثر فعال فى شيوع الحكم العميقة والأمثال السائرة من وحى الثقافة والمعرفة والخبرة والتجربة والمواقف والأحداث .

وإذا كان لأبى تمام ومدرسته هذا الأثر القوى فى الشعر العربى فكذلك كان لمدرسة البحترى أثرها ، فقد عاد البحترى بالشعر إلى سبيل الطبع والفطرة مع ما فيه من صنعة دقيقة تكاد تخفى ، كما أخذت الصياغة حقها من عذوبة الألفاظ وقوة إيحائها وجودة تأليفها وحلاوة جرسها وتوشيتها بألوان من البديع غيرمتكلفة ولا مستكرهة ، مع ميل إلى الوضوح ورغبة عن التعقيد وركوب الصعب من الأساليب وإصرار على تخليص الشعر مما لا يتفق معه من قضايا منطقية وأبعاد فلسفية ، وبراعة فى الجمع بين القديم الموروث والجديد المبتكر دون أن يحيد عن المألوف أو يخرج على عمود الشعر المعروف ...

وعلى يدى البحترى أخذت الكلمة حقها وعرف لها قدرها فتحولت فى شعره إلى طاقة تعبيرية هائلة وقدرة تصويرية مثيرة وكانت بذلك رد فعل خاص لاتجاه معاكس أثر الغوص على المعانى العميقة والجرى وراء الفلسفة والمنطق فالتوت بذلك الأساليب وعسر فهمها وعجزت الألفاظ فى أحيان كثيرة عن أداء معانيها والوفاء بأبعادها . وقد تحولت هذه السهولة النابعة من الأصالة الفنية والاقتدار على الشعر والتمكن من صنعته إلى سطحية بعد ذلك إذ لم تتوفر لكثير من الشعراء أصالة الموهبة وصفاء الطبع وتدفق الشاعرية وبراعة الاقتدار وجودة المزج بين الطبع والصنعة : الطبع النقى الصافى والصنعة الدقيقة المحكمة .

وقد كان لمدرسة البحترى أثرها العظيم فى ازدهار هذه الأشعار الرقيقة التى تمتاز بما فيها من العذوبة وروعة النغم وجمال الموسيقى وقد تحول كثير من قصائد الشعراء إلى مقطوعات غنائية تزهو بألحانها العذبة فتطرب لها النفوس وتتفتح القلوب وتصفو معها الحياة .

وقد كان لاتجاه البحترى نحو التأمل فى الطبيعة وأحداث الحياة وتقلبات الأيام أثر واضح فى فتح باب رثاء الممالك الزائلة ووصف آثارهاوما بقى من مظاهر حضارتها وشواهد عزها وسالف مجدها ، وانطلق الشعراء يعبرون فى أسى بالغ وحزن مرير ورقة متناهية عن تقلبات الدهر وعجائب الزمن وما يصيب الأمم والدول فى مدنيتها وحضارتها وآثارها وماتتعرض له من منزلة وهوان وضعف واضمحلال . ولذلك كله حق لشعر البحترى أن يحتذى ويتبع ويتعشقه طلاب الفن والجمال ، وحق لمدرسته كذلك أن تكون قمة شامخة تتعلق بها الأبصار وتهفو إليها القلوب ، ويتعبد فى هيكلها أرباب البلاغة وسحر البيان .

وظهر ابن الرومي ومضى على طريق أبي تمام ، فكان نابغة في التصوير مقتدرا على التجسيم والتشخيص وإبراز المعنويات في صور حسية ، كما كان بارعا في هجائه الساخر الذي يجسم فيه العيوب ويبديها مكبرة واضحة للعيان مثيرة للسخرية والضحك والإشفاق ... لقد كان التصوير مذهبا فنيا ملتزما به لدى أبي تمام وابن الرومي ، وقد زاد ابن الرومي في تصويره وتجسيمه وتشخيصه أبعادا وأعانه على ذلك استقصاؤه وإحاطته بالفكرة وميله إلى الإسهاب في تصويرها والتعبير عنها .

أما ابن المعتز فقد كان بحق علامة مميزة على طريق التطور والتجديد في الشعر العباسي .. وكانت له تشبيهاته وصوره وأخيلته ومعانيه المبتكرة التي كانت وردا صافيا ونبعا فياضا للشعراء في عصره ومن بعده فنهلوا من معينه واستقوا من فيضه . ومن بين الشعراء الذين تأثروا بابن المعتز أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان أمير الأندلس الذي كان يلقب بابن معتز الاندلسي إذ كان له من ترف الأداء وجمال الصنعة وعذوبة الأسلوب وجمال اللفظ وروعة التصوير ما جعله شبيها بابن المعتز .. وممن أشبه ابن المعتز في الشاعرية الفياضة وطبيعة النشأة وظروف البيئة تميم بن المعز الفاطمي (٣٣٧ - ٣٧٤هـ) الذي كان يلتقي مع ابن المعتز في كثير من معانيه وأغراضه .

وكان أبو فراس الحمداني (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ) متأثرا بشعر ابن المعتز ويمضي على طريقه ومنهجه في فخره وظرفه . وكان ابن سناء الملك (٥٥٠ - ٦٠٨ هـ) يجري خلف ابن المعتز ويطلب مطالبه ويحتذي حذوه .[1] ويحقق في نماذجه تلك الخصائص التي كانت لابن المعتز من السلاسة وقوة الطبع وحسن

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة ص ١٩ ، ٢٠ .

التصوير ، ولابن خفاجة الأندلسى (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) من الخصائص المميزة ما يلحقه بابن المعتز فى كثرة معانيه وازدحام صوره وخصوبة خياله وإكثاره من التشبيه والعناية بأوصاف الطبيعة .

وقد ظلت أوصاف ابن المعتز وتشبيهاته مددا لا ينقطع للشعراء من بعده فى شتى العصور لما فيها من ترف الأداء ولما تمثله من طرافة وابتكار . (١)

هؤلاء الشعراء المبدعون كانوا يحيون حياة عميقة مفعمة بالمشاعر والأحاسيس ولقد عبروا بشاعرية وفن عن خلجات نفوسهم وعما تنبض به الحياة من حولهم فكانت أشعارهم بحق صورة صادقة لأنفسهم وابيئتهم وعصرهم والمجتمع الذى يعيشون فيه والحياة التى يحيونها والعالم الذى كان يموج بتيارات شتى كان لها من غير شك تأثير فعال فى مختلف المجالات ... ولم يكن غريبا أن تكون أشعارهم ركيزة راسخة ومنطلقا رحبا للشعراء من بعدهم بما تمثله من عناصر البقاء والخلود والثبات والتجدد . ولم يكن تأثير الشعر العباسى قاصرا على المشرق العربى فحسب ولم يكن تأثيره كذلك قاصرا على جيل أو جيلين من الناس بل امتد تأثيره شرقا وغربا حتى غزا الأندلس وتسرب عبر أجيال وعصور إلى أن استقر فى الأعماق والضمائر تراثا فنيا خالدا . كان الشعراء الأندلسيون يصوغون قصائدهم على القوالب العباسية شكلا ومضمونا ، وقد رأينا شاعرا أندلسيا له شهرته وقدره وهو أبو حفص بن برد الأصغر يذكر عنه ابن بسام فى الذخيرة أنه يحتذى على مثال العباسيين ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح مدى أخذه من ابن الرومى وابن المعتز وغيرهما . (٢) كذلك يشير ابن بسام إلى احتذاء ابن زيدون على مثال الشعراء العباسيين وبخاصة البحترى وأبى تمام . (٣)

(١) ابن المعتز لخفاجى ص ٣٤٣ وما بعدها .
(٢) الذخيرة لابن بسام جـ ٢ من ص ٣٧ إلى ص ٥٠ .
(٣) الذخيرة جـ ١ ص ٢٩٩ - ٣٢٦ .

وابن خفاجة الشاعر الأندلسى المبدع لم يكن فى افتنانه بالطبيعة وتصويره لها وتشخيصه لمظاهرها وتطبيقه وتجنيسه .. لم يكن فى ذلك سوى مقلد يمضى على طريق أبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى . وكان من أثر تلك الاتجاهات المتعددة فى الشعر العباسى أن كان للشعر المعاصر نفس هذه الاتجاهات فى التعبير والتصوير والمنهج والأسلوب والمذهب والكيان ...

فإذا كان هناك مذهب للذة والمتعة واللهو والمجون حمل لواءه بشار وأبو نواس وحسين بن الضحاك وغيرهم ممن أضرموا نار الغرائز وأمدوا هذه النار بوقود لا ينفد فقد أصبح هذا الاتجاه مذهبا عند كثير من الأدباء والشعراء فى العصر الحديث فقد رأوا فى ذلك الاتجاه وسيلة لتطهير النفوس من أدرانها والتنفيس عنها وتخليصها من شرورها . (١)

ويرى شوقى ضيف أن ديوان " أفاعى الفردوس " لإلياس أبى شبكة تصوير لناحية اللذة الجسدية الصارخة وهو فيه يحاول أن يصور نار الفحش التى تتلظى فى جسد العاهر من رأسها إلى أخمص قدميها واختار لذلك مواقف فاجرة سيطرت فيها الشهوة الجسدية على المرأة فأفقدتها توازنها وأسقطتها من قمة الشرف والطهارة إلى درك الدعارة . (٢)

يقول إلياس مخاطبا شيطانها :

أجل سيراك الليل بعد تضمها ... ويبصرك المصباح تعصرها عصرا
وسوف ترى فيه المأتم نعجة ... قد التصقت فى بطنها حية سحرا
ستملكها ما شئت بعد فلا تخف ... فإن ابنها لما يزل يجهل الأمرا (٣)

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر لشوقى ضيف ص ٦٦ .
(٢) دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ٦٧ .
(٣) نفسه ص ٦٨ .

ويقول :

فلتقض شهوتها حتى يهدمها ما كان فى صدرها من عهرها الدامى

وتنجز الشهوة الحراء دورتها فيمحى رحم من بين أرحام [1]

كذلك كان للنزعة العلمية والاتجاهات الفكرية فى شعر المحدثين مظهر واضح فى أشعارهم فقد ارتقى الفكر فى العصر العباسى وازدهر العلم وبالتالى ظهرت هذه النزعة العلمية واستحدث هذا النوع المسمى بالشعر التعليمى وقد اتسع هذا اللون ونظموا فيه كل ألوان المعرفة عندهم .

وأصبح الشعر العربى مزدهرا بهذا اللون من الشعر التعليمى ، وقد رأينا فى العصر الحديث من يتحمس لهذه الاتجاهات العلمية والفكرية فى الشعر كجميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى والعقاد ومطران . وعلى سبيل المثال نرى الزهاوى وقد استحال شعره إلى نوع من العلم وبسط المعارف فهو يقول فى قصيدته " القوة والمادة " :

ما فى الجواهر والأجسام منجمها

إلا قوى هى تبنيها وتهدمها

وهذه لست بالتحقيق أعلمها

لا جسم إلا ويفنى بعد أزمنة

فلا جواهره تبقى ولا الصور

فيها القوى وهى بالسلب تتصف

كهيربات إلى الأضداد تنصرف

---

(١) نفسه ص ٦٩ .

تدور من حـــولهـــا وثبـــا ولاتقف

فى حـبـــة الرمل فـوق الأرض ســاكنة

بين القـــوى مـــا به الأطواد تنفطر [1]

وما أشبه هذا بما كان ينظمه الشعراء العباسيون من حقائق العلم والمعرفة وما كان يعرف باسم الشعر التعليمى الذى كان أثرا من آثار الازدهار العلمى والفكرى والاتصال بالثقافات الأجنبية واتساع أنواع المعارف والعلوم والحرص على التزود منها وتيسير حفظها واستيعابها ، والذى كان - أيضا - عاملا من العوامل القوية التى حررت الشعر العربى من نظم القصيدة التقليدية وخاصة فى القافية واتجهت به إلى المزدوج وغيره من ضروب النظم ...[2]

كمـا كان مظهـرا من مظاهر التطور المذهبى فى الشـعر العربى فى هذا العصر ويرى صاحب " الشعر فى بغداد " أن الشعر التعليمى مرحلة من مراحل التطور فى شعر الأخلاق والحكمة إذ أن الشعر يكون فى أول أمره نصحا وإرشادا ومواعظ تقوم على أساس التجارب الإنسانية العامة حتى إذا بلغ الشعراء من العلم والمعرفة مبلغا حسنا أغراهم ذلك بأن يستخدموا معارفهم الجديدة فى هذا الطراز من الشعر ، وقد نشأ هذا الضرب من الشعر عند أصحاب الآراء والمذاهب الدينية من الشعراء[3] . ويرى الدكتور هدارة أن لهذا النوع من النظم أثرا خطيرا بعد ذلك فى حياة الشعر العربى إذ أصبح فى العصور المتأخرة النوع الوحيد الذى يسمى شعرا وما هو بشعر .[4] وهو فى ذلك متأثر برأى الدكتور طه حسين الذى

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ١١٠ وما بعدها .

(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ٣٥٩ .

(٣) أحمد عبد الستار الجوارى : ص ٢٥٥ .

(٤) اتجاهات الشعر العربى ص ٣٦٧ .

يقرر أن الشعر التعليمى " فن ليس له فى نفسه قيمة أدبية ولاسيما فى العصور المتحضرة كعصر العباسيين ، وانما قيمته فى تلك العصور التى لاحظ لها من علم ولا من حضارة والتى لا تنتشر فيها الكتابة ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ففى مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمى ويفيد لأنه أيسر حفظا من النثر " (١) .

والواقع أن هذا الشعر التعليمى كان مذهبا واتجاها له عوامله وأسبابه كما كانت له نتائجه وآثاره فى منهج الشعر العربى وأسلوبه واتجاهاته وأنه مرحلة من مراحل التطور لا تنكر ولا ينبغى لقيمتها أن تغفل .. ففى هذا الاتجاه استخدام ذكى بارع للشعر فى شتى المجالات العلمية والفكرية والثقافية وفى الفلك والنجوم ونظم الكون وفى الطب والحكمة وفى الفلسفة الطبيعية وعلم الحيوان وفى النحو والتاريخ والفرائض وفى العقائد والأسمار والأساطير حتى فى الحب وحيل المحبين ، ففى " الأوراق قسم أخبار الشعراء " قصيدة تعليمية طريفة لمحمد بن أبان اللاحقى فى الحب وحيل المحبين وجاء فيها : (٢)

فاسمع مقالا صادقا ... يا من يبيت عاشقا
للحب خلتان ... هما هما اللتان
الصبر والرفق معا ... يوما اذا ما اجتمعا
فى عاشق مهجور ... مباعد مغرور
قضى قريبا وطرا ... وبلّغاه الوطرا

ومن الاتجاهات البارزة فى أشعار المحدثين الاتجاه الذى يعنى بتسجيل

---

(١) حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٢٢١ .
(٢) الأوراق قسم أخبار الشعراء ص ٥٧ . وما بعدها .

أحداث العصر والتعبير عن ظروفه وأحواله وتصوير مظاهر الحياة بأدق خصائصها وبجملتها وتفاصيلها ، وقد سيطر هذا الاتجاه على الشعر العربى فكان صدى قويا للحياة وانفعالا بها وتعبيرا فنيا عنها واتصالا مباشرا بأحاسيس الجماهير ومشاعرها والتزاما بجانب الصدق وانصرافا عن الزيف وميلا إلى البساطة والبساطة واستجابة لنزعة شعبية أصيلة تتجلى آثارها فى الموضوع والتعبير والتصوير [1] لقد أخذت هذه الواقعية سمتها المتحرر بلا قيود وانطلق الشعراء تحت رايتها يعبرون بصراحة وجرأة عن ظواهر الحياة ومباهج الترف ونزوات الطبع وقد أثارت هذه الواقعية ثائرة الأخلاقيين والمثاليين ولم ترض بدورها أذواق الرمزيين أصحاب الإشارة واللمح والإلهام والإيحاء .

وفى الأدب العربى الحديث من يتجه بالشعر اتجاها واقعيا يعبرون به عن الحياة والمجتمع وينزعون نزعة إنسانية عالمية ومنهم أبو شادى والزهاوى وعمر أبو ريشة ومحمود أبو الوفا ، ويؤيد أحمد أمين مذهب الفن للحياة فهو يرى أن العمل الفنى لا قيمة له إذا لم يكن مستمدا من الحياة ولم تكن غايته خدمتها ، بينما يرى توفيق الحكيم أن الفن ليس من الضرورى أن تكون له غاية اجتماعية أو سياسية أو دينية أو غير ذلك وإنما هدفه الأول أن يكون فنا جميلا فحسب فليس على الأديب أن يكرس حياته وفنه لخدمة الحياة والناس للتوجيه الوطنى أو القومى أو الإنسانى وانما عليه أن ينشىء فى الفن مجردا عن كل غاية . [2]

---

(١) والواقعية عند النقاد تعنى الاتصال بالحياة كما هى لا كما يجب أن تكون عليه وتنادى بمشاركة الأدب والشعر للمجتمع مشاركة صحيحة فعالة مع قوة الملاحظة ومعرفة الجزئيات والاتكاء على الحس ووصف الأشخاص والبيئات والزمان والمكان طبق الواقع المشاهد مع البراعة فى تصوير الحقيقة وواقع الحياة والعناية باللفظ والطبيعة والصورة (انظر مذاهب الأدب لخفاجى – الأدب الهادف لتيمور– فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية لطه الحاجرى) .

(٢) دراسات فى النقد العربى الحديث ومذاهبه لخفاجى ص ١٣٠ .

وكان من أثر تلك الاتجاهات المتعددة فى الشعر العباسى أن كان للشعر المعاصر نفس هذه الاتجاهات من اعتماد على متانة الأداء وفخامة الأساليب وجزالة الألفاظ أو من تلك السهولة وهذا اليسر مع بساطة الأداء والتحرر من رنين اللفظ الخلاب والنغمة العالية ...

فإذا كان من شعرائنا المعاصرين من يهتم بالصياغة وأصول الصنعة وفخامة الأسلوب وقوة المعانى والألفاظ فقد كان أبو تمام يمثل القمة فى هذا الاتجاه ... وإذا كان منهم من يهتم بعذوبة الألفاظ وسحر الكلام وسلاسة الأسلوب فقد كان البحترى هو زعيم هذا الاتجاه بلا جدال حتى انه قد أطلق على شعره "سلاسل الذهب " [1]... وإذا كان منهم من يهوى اليسر وبساطة الأداء ويميل إلى شعبية التعبير وسهولة الأساليب فقد كان أبو العتاهية بحق هو الفارس المشهود له فى هذا المجال " فلشعره من هذه الناحية قيمته الفنية باعتباره تجربة ناجحة فى الشعر الشعبى الفصيح وفى التقريب بين لغة الشعر ولغة النثر " [2] .

وإذا كان منهم المعنويون أصحاب المعانى العميقة والأفكار الدقيقة والغوص العجيب والإيحاء والخفاء والرمز المثير فقد كان أبو تمام يستوى على عرش هذا المذهب رائدا وزعيما وإماما فى صناعة الشعر غير مدافع . [3]

وكان للتصوير دور ممتاز فى الشعر المعاصر فقد برع فيه شعراء كثيرون وأبدعوا ، ورأينا شاعرا من الشعراء المعاصرين كعمر أبى ريشة يمتاز بتصويره البارع وقدرته الفائقة على أن يرسم بكلماته وألفاظه لوحات فنية متكاملة ترى فيها

---

(١) كشف الظنون المجلد الأول ص ٧٧٩ .
(٢) دراسات فى الأدب الاسلامى لخلف الله ص ١٠٩ .
(٣) العمدة جـ ١ ص ٧٤ .

من البراعة والاقتدار ماجعل باحثا كالدكتور شوقى ضيف يقرر أن روح أبى تمام القديمة بعثت ثانية فيه وهى لم تبعث وحدها بل بعثت أيضا روح ابن الرومى . (١)

ويعلل لذلك بقوله : " وكأن ثقافة ابن أبى ريشة بشاعرينا القديمين والشعر الحديث هى التى أملت عليه هذا الاحساس فإذا شعره يصبح مسرحا لأطياف العالم الخارجى وأشباحه وإذا هذه الأطياف والأشباح تملأ نفسه من جميع أقطارها " (٢)

ولم يقف الأمر عند حد عمر أبى ريشة بل كان هناك كثير من الشعراء يتخذون من مادة التصوير الإبداعى أداة فنية يحققونها فى نماذجهم ويحلقون بها فى آفاق عليا من الروعة وسحر الأداء ، وعلى سبيل المثال نذكر " جبران خليل جبران " فى قصيدته " البلاد المحجوبة " إذ يقول : (٣)

قد أقمنا العمر فى واد تسير ... بين ضلعيه خيالات الهموم

وشهدنا اليأس أسرابا تطير ... فوق متنيه كعقبان وبوم

وشربنا السقم من ماء الغدير ... وأكلنا السم من فجِّ الكروم

ولبسنا الصبر ثوبا فالتهب ... فغدونا نتردَّى بالرماد

وافترشناه وسادا فانقلب ... عندما نمنا هشيما وقتاد

فأنت ترى فى هذه الأبيات أطيافا وأشباحا قد ملأت نفسه واستولت عليها من جميع أقطارها .

وقد أحدث الغناء وازدهاره فى العصر العباسى تحولا كبيرا فى الأوزان

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر لشوقى ضيف ص ٤٩ .
(٢) نفسه ص ١٣٢ .
(٣) الأدب العربى الحديث ومدارسه لخفاجى ص ٣٤٩ وما بعدها .

والقوافى وبناء القصيدة ووحدتها العضوية والميل بها إلى السهولة والعذوبة والرقة وروعة الموسيقى وإبداع النغم ، وبتأثير الغناء وجدت صورٌ شعرية جديدة فى الشعر العربى ومنها " المسمط والمخمس والمزدوج والدوبيت والمواليا والسلسلة .. " وكان أبو العتاهية يخرج على قواعد العروض ويقول " أنا أكبر من العروض "[1] . وابتكر المولدون الأوزان المولدة وهى عكس الأوزان التى وضعها الخليل بن أحمد . [2] وهم الذين استحدثوا ما سموه بالفنون السبعة وهى : السلسلة والدوبيت والقوماوالموشحات والزجل والمواليا وكان وكان [3] .. ولقد كان لهذه الاتجاهات أثر بالغ فى دعوات التجديد فى الشعر العربى الحديث وعلى رأسها التجديد فى الأوزان والقوافى فمن مظاهر التجديد فى الوزن الدعوة إلى نظم القصيدة من بحور مختلفة وأوزان متعددة وقد سموا ذلك " مجمع البحور " وممن نظم منه : شوقى وإيليا أبو ماضى وميخائيل نعيمة وشفيق معلوف وإلياس فرحات ومحمود غنيم .

ومن مظاهر التجديد فى القافية الدعوة إلى تنويع القافية وهى دعوة مقبولة تهيىء للشاعر انطلاقا خاصا فى إطار التعبير عن الأحاسيس والمشاعر ، والتعدد فى قوافى القصيدة له مثيل فى تعدد القوافى فى الموشحة .

وإذا كان لمدارس التجديد دور بالغ فى الأدب العربى تمثله تلك المذاهب الفنية الملتزمة بأصول الصنعة والمتميزة بخصائصها وسماتها فإن هذه المذاهب الفنية ينبغى أن تكون هى الأصول القوية والدعائم الراسخة التى تقوم عليها الحركة التجديدية فى الشعر العربى الحديث على أن يتم الامتزاج ببراعة واقتدار بين هذه

---

(١) أغانى دار الكتب جـ ٣ ص ٢٥٤ .
(٢) البناء الفنى للقصيدة العربية لخفاجى ص ١٠١ .
(٣) البناء الفنى ص ١٠٤ .

الأصول والدعائم من جهة وبين هذه التيارات من جهة أخرى بحيث تستحيل هذه التيارات فى مجرى الشعر العربى روحا جديدا تستمد منه المعانى والأفكار وطرائق التعبير وضروب التصوير والخيال .

ومن الحقائق الثابتة أن مظاهر التجديد فى الشعرالحديث كانت لها أصول قوية فى الشعر العربى القديم وأن هذه الأصول كانت ولا تزال هى الدعائم الثابتة لحركات تجديدية إبداعية مستمرة ، قد يجانبها التوفيق فى بعض الأحيان ، لكنها خليقة بأن تحقق أهدافها فى كثير من الأحيان .. وفى ذلك يقول صاحب نظرية الفن المتجدد : " وإننى هنا بالنسبة لخصائص الشعر الحديث لأقول برغم أنها أضحت خصائص لهذا الشعر إلا أن نواة كثير منها موجودة فى الشعر القديم مما يدل على أن الشعر العمودى لا تأبى طبيعته هذه الخصائص ولا تصطدم بشكله بل هو مجال صالح لها ، وليس هناك سوى أن الشعراء القدماء ومن ساروا على نهجهم فى العصر الحديث لم يحرصوا على أن يجعلوها خصائص متميزة لأشعارهم ...[1]

وأقول معقبا على هذا الكلام : إن هذه الخصائص المستحدثة كانت لها أصول فى الشعر القديم وإن هذه الأصول كانت ملتزمة كما أنها كانت مقررة معروفة لدى النقاد القدامى وأنهم كانوا ينوهون بها وينبهون عليها وقد أثبت على امتداد هذا البحث أنه كان هناك مدارس للتجديد فى الشعر العباسى لكل مدرسة خصائصها واتجاهاتها المتميزة أبدعها الرواد المجددون والتزم بها تلاميذهم من بعدهم بين متبع يحاكى ويقلد ومبتدع يطور ويجدد ، وكان هناك طابع عام يبدو

(١) نظرية الفن المتجدد وتطبيقها على الشعر لعز الدين الأمين ص٤٣ ، ٤٤ .

واضحا جليا فى أشعار هؤلاء المحدثين يتضمن نفس هذه الأصول التى كانت هى الأسس الفنية لحركات التجديد فى الشعر العربى الحديث من اختراع المعانى وتفريعها وتوليدها واصطناع ألوان البديع وضروب التصوير وأساليب البيان والعناية بجودة الابتداء وحسن المطالع وبراعة التخلص وإحكام الربط بين المعانى والعناية بالختام ، وتخير أحسن الكلام وأعذب الألفاظ ، فكان لهم بذلك فضل لا ينكر وأياد ما زالت آثارها شاهدة ، وفى ذلك يقول الأستاذ محمود مصطفى :

" وإن فضل العباسيين على الأدب العربى لفضل واسع المدى غير مستطاع الشكر ، فيد العباسيين على العربية عظيمة القدر وإننا إنما نتقيل ظلهم ونطبع على غرارهم إذ كانت همتهم غاية الهمم وآثارهم مناط الآمال " (١) .

وقد أورد طه حسين فى مجال حديثه عن أبى تمام وقصيدته فى وصف معركة عمورية ما يؤكد هذه المكانة والمنزلة للشعراء العباسيين إذ يقرر أن فى قصيدة أبى تمام من الشعر ما لاءم الذوق القديم ويلائم الذوق الحديث ويعجب به الشرقى والغربى معا لأن الشعر فى نفسه فيه قبس من هذا الجمال الخالد الذى هو فوق الزمان والمكان والجنسيات . (٢)

لذلك كان للشعر العباسى أثر قوى فى الشعر العربى وكان لتأثير الشعراء العباسيين مظهر واضح فى هذه المعارضات الشعرية التى برع فيها كثير من شعراء العصر الحديث ، فقد رأينا كثيرا من الشعراءالمحدثين يسيرون على نهج هؤلاء العباسيين ويحتذونهم وينسجون على منوالهم ويقلدونهم فى بعض قصائدهم المشهورة على سبيل المعارضة الشعرية . وفى ذلك يقول طه حسين : " ولعل من

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى ص ٣٩٣ .
(٢) حافظ وشوقى لطه حسين ص ٣٩ . ط: ١٩٧٤ .

الخير والحق أن ننصف الشعراء فنلاحظ أنهم كانوا مضطرين إلى أن يتأثروا بالقديم أول الأمر لأن هذا التأثر بالقديم فى نفسه دليل على الحياة والقوة والقدرة على البقاء والجهاد .. هو دليل على أن لهذا الأدب العربى ماضيا خصبا فيه غناء وفيه قدرة على الحياة ومغالبة العصور وفيه قوة على أن يعيش ويعبر بأساليبه وأنماطه القديمة عن طائفة من أنحاء الحياة الجديدة مضت بينه وبينها قرون طوال " [1]، ويقرر شوقى ضيف أن شعراءنا المعاصرين لا ينفصلون عن أسلافهم وتقاليدهم الفنية الموروثة فما يزال المجلُّون السابقون منهم يحتفظون بشخصية شعرنا ومقوماته اللفظية مع التمثل الدقيق للشعر الغربى وأنماطه فهم مجددون وهم فى الوقت نفسه متصلون بالقديم يعتدون به كما يعتدون بشخصياتهم ومقوماتهم المستقلة التى أهلتهم لها ثقافاتهم وشعورهم الكامل ببيئاتهم وعصورهم [2] .

وعلى سبيل المثال فإننا نرى شاعرا كالبارودى كان ينظم شعره محاكاة ومعارضة لشعر الأقدمين من فحول الشعراء العباسيين فحفظ من كلامهم كثيرا ونسج على منواله ولذلك كان صدر شعره فى رتبة شعر فحول القرنين الثالث والرابع خاليا من تكلف البديع ضخم المعانى جزل الألفاظ متين الأسلوب [3] . والبارودى يعد لذلك باعث نهضة الشعر فى العصر الحديث لأنه بث فيه الروح بعد أن خنقته عصور الانحطاط وردإليه ما أبلت القرون من حيويته وأنعشه بعد أن كاد يموت وأعاد إليه سالف مجده ورونق عزه ووصله بعهد الفحول الكبار من الشعراء العباسيين وعبر به مهاوى التدهور والقتامة محلقا فى آفاق من الصياغة المحكمة

---

(١) حافظ وشوقى ص ٦ .
(٢) مقدمة دراسات فى الشعر المعاصر لشوقى ضيف .
(٣) الوسط للاسكندرى وعنانى ص ٣٤٨ .

والديباجة المشرقة والبيان الناصع والأسلوب المتين والروح العربى الأصيل وانك لتقرأ بعض قصائده فتلمس روحا عباسيا نواسيا يسرى فيها ويشيع فى أعطافها تأمل قوله من مجزوء المتدارك :

امـــــلأ القـــــدح ... واعـــص مـــن نـــصـــحْ
وارو غلـــــــتى ... بـابـنـة الـفـــــرح
فـــالفـــتى مـــتى ... ذاقـــهـــا انشـــرح
وهـــى إن ســـــرت ... فـــى الـعـلـيـل صـــح
أو صـــبـــابـهـــا ... بـاخـل ســـــمح
فـــاهـجـــر الكرى ... واغـــــد نـصـطـبـح
فـــالدجى مـــضـى ... والـــسُّـنـا لـــح
والحَمـــــام فـــى ... أيـكـه صـــــدح
فـــاتـبـع الـهـــوى ... حـيـثـمـا ســـرح
واصـــطـحـب بمـــن ... يـبـــعـثُ المـرح
فـــيـــه للـمـنـى ... كل مـــقـــتـــرح[1]

كذلك نرى أمير الشعراء أحمد شوقى يتأثر تأثرا قويا واضحا بأبى نواس وأبى العتاهية والعباس بن الأحنف وأبى تمام والبحترى وابن الرومى، وفى ديوانه قصائد مختلفة يعارض بها بعض فحول الشعراء ببراعة واقتدار .

وانه ليعجب بشعر البحترى إعجابا يملك عليه نفسه وقد بهرته موسيقاه وأطربه لفظه وأشجاه ، فكان يشيد به ويعترف بفضله عليه وهو يصرح بذلك صراحة ويؤكده تأكيدا فى تقديمه لقصيدته السينية التى يصف فيها قصر الحمراء

(١) ديوان البارودى جـ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ط : الأميرية بالقاهرة ١٩٥٣م .

بغرناطة ويأسى لما أصاب الحكم العربى فى الأندلس من تدهور وضياع فيقول[1] :

" وكان البحترى رحمه الله رفيقى فى هذا الترحال ، وسميرى فى الرحال ، والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فإنه أبلغ من حلى الأثر ، وحيا الحجر ونشر الخبر ، وحشر العبر ، ومن قام فى مأتم على الدول الكبر ، والملوك البهاليل الغرر ، وتكفل لكسرى بإيوانه ، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه وسينيته المشهورة فى وصفه ليست دونه وهو تحت كسرى فى رصّه ورصفه ، وهى تريك حسن قيام الشعر على الآثار وكيف تتجدد الديار فى بيوته بعد الاندثار ... وهذه السينية هى التى يقول فى مطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسى ... وترفعت عن ندى كل جِبْس

وقد وضع شوقى قصيدة البحترى هذه نصب عينيه وجعل يروض القول على رويها ويعالجه على وزنها ويتمثل بأبياتها وينسج على منوالها ويمضى على نهجها ويقول : [2]

اختلاف النهار والليل ينسى ... فاذكرا لى الصبا وأيام أنسى

وصفا لى ملاوة فى شباب ... صوّرت من تصورات ومس

عصفت كالصبا اللعوب ومرت ... سِنة حلوة ولذة خلْس

وسلا مصر هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحَه الزمان المؤسى

كلّما مرت الليالى عليه ... رق والعهد فى الليالى تقسّى

مستطار إذا البواخر رنّت ... أول الليل أوعوت بعد جرس

يا ابنة اليَمّ ما أبوك بخيل ... ماله مولعا بمنع وحبس

أحرام على بلابله الدو ... ح حلال للطير من كل جنس

(١) الشوقيات جـ ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ط : فن الطباعة ١٩٤٨ .
(٢) المرجع السابق .

ولذا فقد أطلق عليه أحد الباحثين أنه بحترى الشعر الحديث إذ أنه استطاع أن يكون لنفسه موسيقى ساحرة تعتمد على صياغة عربية سليمة ومن هنا استحوذ على قلوب العرب جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها لأنه ضرب على أوتار قيثارتهم فأحسن الضرب إلى أبعد حد " (١) .

وقد عارض شوقى أبا خالد بن محمد المهلبى فى داليته التى رثى بها المتوكل بقصيدة تعد من أحسن شعره ، ومنها هذا البيت النادر :

وقد يموت كثير لا تحسهم كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

أخذه من قول المهلب :

انا فقدناك حتى لا اصطبار لنا ومات قبلك أقوام فما فقدوا

وبيت شوقى أصح معنى وأجود استقامة (٢) .

لكن الدكتور طه حسين يحمل على شوقى حملة شعواء فى قصيدته التى يصف فيها انتصار الترك على اليونان ويشيد بمصطفى كمال والتى يبدؤها بقوله :

الله أكبركم فى الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

والتى يقول فيها شوقى :

يوم كبدر فخيل الحق راقصة على الصعيد وخيل الله فى السحب
غرٌّ تظللها غراء وارفة بدرية العود والديباج والعَذَب
نشوى من الظفر العالى مرنحة من سكرة النصر لا من سكرة النُّصب
تذكِّر الأرض ما لم تنس من زبد كالمسك من جنبات السُّكْب مُنسكب
حتى تعالى أذان الفتح فاتئدت مشى المجلِّى إذا استولى على القصب

(١) شوقى شاعر العصر الحديث : شوقى ضيف ص ٨٤ ، ٨٦ .
(٢) انظر ذكرى الشاعرين لأحمد زكى ص ٤٨٢ وما بعدها و" شوقى شاعر العصر الحديث لشوقى ضيف " ص ٨٢ .

وذلك لأن " شوقى " اتخذ من قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية نموذجا فى اللفظ والمعنى وفى الوزن والقافية . [1] وهى القصيدة التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

بيد أن الأمر فيما أراه ليس كذلك فإن " شوقى " أثبت بمثل هذه المعارضة براعة واقتدارا وقد أعاد بذلك إلى الشعر العربى الحديث ديباجته المشرقة وأسلوبه العالى ووجهه العربى الأصيل فى وقت كانت فيه الحياة الأدبية فى حاجة ملحة الى نفحة من تلك النفحات العاطرة التى أجراها الله فى شعر البارودى وشوقى وغيرهما من شعراء العربية المعاصرين ...

وقد برع شوقى كذلك فى تقليده لتلك النماذج القصصية على ألسنة الحيوانات والطيور بأسلوبها المتميز الذى عرفناه فى " كليلة ودمنة " التى نقلها ابن المقفع إلى العربية نثرا ونظمها أبان اللاحقى شعرا .

كذلك كان شاعر النيل حافظ ابراهيم يقلد ويعارض ويمضى على نهج المتقدمين من الشعراء العباسيين .

أما الشاعر إسماعيل صبرى فقد تزود بكثير من أدب التراث الحافل واعتمد فى شعره على التقليد والمحاكاة لتلك النماذج التى قرأها واتصل بها وقد تأثر بالبحترى فى روحه الغنائى كثيرا . [2]

ويقرر عبد الرحمن شكرى أنه تأثر فى مطلع حياته الأدبية ببشار بن برد

---

(١) حافظ وشوقى ص ٣٦ وما بعدها ، انظر نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر ص ٢٨٨ لعز الدين الأمين .

(٢) مذاهب الأدب لغفاجى ص١٠٢ .

والحسن بن هانىء ومسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف وأبى تمام وابن المعتز والشريف الرضى وأبى العلاء المعرى وغيرهم . [1]

وأروع ما يمكن أن نتبينه من اتجاهات الشعر العباسى ومدارسه التجديدية تلك النزعة إلى الوحدة العضوية والتكامل الفنى فى بناء القصيدة ، وهذه الوحدة العضوية هى التى يزهى بها الشعر الحديث ويعتبرها النقاد من أجل مظاهرالتجديد فيه . وإن الدارس ليرى أنه إزاء الشعر العباسى مع أعمال فنية محكمة متكاملة البناء جيدة الصياغة متقنة الصنعة وقد التفت النقاد القدامى إلى هذه الوحدة الفنية فى القصيدة وأشادوا بها وعبروا عن أهميتها كما نرى فى عبارة الحاتمى التى أوردها الحصري فى زهر الآداب تحت عنوان " وحدة القصيدة واتساقها " [2] يقول الحاتمى : " مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الإحسان حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال .. " .

وقد لحظ ابن رشيق نحو ذلك فى البيت من الشعر فى إطار الأبنية المتصلة إذ يقول [3] : " والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية قراره الطبع ، وسمكه الرواية ، ودعائمه العلم ، وبابه الدربة ، وساكنه المعنى ولا خير فى بيت غير مسكون وصارت الأعاريض والقوافى كالموازين والأمثلة للأبنية أو كالأواخى والأوتاد للأخبية ... " .

---

(١) مذاهب الأدب لخفاجى ص١٠١ .
(٢) زهر الآداب جـ ٣ ص ٦١٥ .
(٣) العمدة جـ ١ص١٠١ .

وإذا كان هناك نقد يوجه إلى الشعر العباسى بسبب ما يلمح فيه من مظاهر اللين والركاكة فى بعض الأحيان فان مرجع ذلك ومرده ميل الشعراء العباسيين إلى السهولة والرقة والعذوبة والعناية بالألفاظ الخفيفة ويسر الأداء ....

وإننا لنتمثل ذلك بوضوح فى مثل قول أبى العتاهية [1] :

يا إخـوتى إن الهـوى قـاتلى ... فـيـسـروا الأكـفـان من عـاجل
ولا تلومـوا فى اتبـاع الهـوى ... فـإننـى فى شـغـل شـاغل
عـينى على عـتـبـة منهلة ... بدمـعـهـا المنسكب السـائل
يا من رأى قـتـيـلا بكى ... من شـدة الوجـد على القـاتل
بسطت كـفى نحـوكم سـائلا ... مـاذا تردون على السـائل

وانك لتجد هذه العذوبة والرقة أيضا فى شعر بشار وأبى نواس والعباس بن الأحنف والبحترى وابن المعتز ...

وقد كان لهذه العذوبة والرقة أثرها فى تلك النماذج الغنائية الرائعة من الشعر العصرى الحديث من حيث الصياغة والمضمون والأوزان الملائمة لأدق المشاعر ومختلف الأحاسيس . وإنك لتقرأ هذه النماذج من شعر بشار وغيره من الشعراء العباسيين فتحس بذلك الروح العصرى الحديث الذى تعرفه وتنفعل به يسرى فى أعطافه ويتغلغل فى كيانه ... يقول بشار [2] :

يا صاح كلنى إلى بيضاء معطار ... وارفق بلومى فما فى الحب من عار
لا تَكِوْنى إن قلبى لو تعـاتبـه ... عن حب عـبـدة كـالمكِوىِّ بالنار

---

(١) العمدة جـ ١ص١٠٥ .
(٢) الديوان جـ ٣ ص ١٦٧ .

حوراء فى مقلتيها حين تبصرها سحر من الحسن لا من سحر سحّار

كأنها الشمس قد فاقت محاسنُها محاسنَ الشمس إذ تبدو لإسفار

الشمس تدنو ولا تصطاد ناظرها ولو بدت هى صادت كل نظّار

ويقول : (١)

حسبى بما قد لقيت يا عمر لم يأتنى عن حبيبتى خبر

شهر وشهران مر قبلهما شهران مران منهما صفر

ياليت شعرى ماتت فأندبها أم أحدثت صاحبا فأنتحر

لا أستطيع الهوى وهجرتها قلبى ضعيف وقلبها حجر

ويقول : (٢)

نور عينى أصبت عينى بسكب يوم فارقتنى على غير ذنب

ليتنى مت قبل حبك يا قـ ـة عينى أو عشت فى خير حب

ويقول : (٣)

هل تذكرين جنوح العصر مجلسنا يوم التقينا بأشواق على قدر

ويقول : (٤)

ما زلت أذكركم وليلكم حتى جفا عن مضجعى جنبى

وعلمت أن الصرم شيمتكم فى النأى والهجران فى القرب

فظللت لا أدرى أقيم على الـ ـجران أو أغدو مع الركب

ويقول : (٥)

رفهى يا عبد عنى واعلمى أننى يا عبد من لحم ودم

---

(١) الديوان جـ ٣ ص ٢٦٤ .
(٢) الديوان جـ ص ٢٧٤ .
(٣) الديوان جـ ٣ ص ٢٤٤ .
(٤) الديوان جـ ١ ص٢١٣.
(٥) الأغانى دار الكتب جـ ٦ ص ٢٥١ .

إن فى بردى جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم

واسمع لصريع الغوانى قوله : [1]

تدعى الشوق إن نأت ... وتجنَّى إذا دنت

واعدتنا وأخلفت ... فأساءت وأحسنت

وقوله : [2]

إن كنت تسقين غير الراح فاسقينى ... كأسا ألذ بها من فيك تشقينى

عيناك راحى وريحانى حديثك لى ... ولون خديك لون الورد يكفينى

إذا نهانى عن خمر الطلا حرج ... فخمر عينيك يغنينى ويجزينى

وتأمل معى قول ابن المعتز : [3]

يوم يشكو طرفى إلى طرفك الحـ ... ـب فأوحى إليه أن قد علمتا

ليت شعرى أما قضى الله أن تذ ... كر فى الذاكرين لى منك وقتا

قسمت فى الهوى البخوت فيا بخـ ... ـتى فى حبها عدمتك بختا

وقوله : [4]

قد صاد قلبى قمر ... يسحر منه النظر

وقد فنيت بعده ... وضاع ذاك الحذر

بوجنة كأنما ... يقدح منها الشرر

وشارب قدهم أو ... نم عليه الشعر

ضعيفة أجفانه ... والقلب منه حجر

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ٣٩ ط مخطوط بدار الكتب المصرية ١٣١٨ أدب .

(٢) الأغانى جـ ١٧ ٥٥ ط مخطوط .

(٣) ديوان ابن المعتز ص ٨٧ ط بيروت .

(٤) الديوان ص ١٠٠ .

إننا ننشد هذه القصائد ونترنم بهذه الأبيات فتتوارد على الخاطر حتما تلك النماذج الغنائية من الشعر العصرى الحديث مما يؤكد عمق الصلة وقوة الارتباط بين تراثنا الأدبى العريق وشعرنا العربى المعاصر ... وليس هناك مجال للشك فى أن الاتجاهات الإبداعية الحديثة ترتكز حتما على أصول قوية من حركات تجديدية مطردة تمثلت بوضوح فى الشعر العباسى المزدهر ومدارسه التجديدية الإبداعية الخالدة ...

ولعل فى ذلك ما يشير إلى أن الروح الغنائي الذاتى الذى يتمثل بوضوح فى الشعر العربى القديم والذى ما زال يسرى فى أعطاف وكيان شعرنا العربى المعاصر لا يمكن أبدا أن يكون مجرد روح فردى بعيد عن الروح الإنسانى العام .. فما الروح الغنائى الذاتى إلا تعبير عن الشعور الإنسانى فى أدق دقائقه وأخص خصائصه بجملته وتفصيله وليس الفرد منفكا عن المجتمع ولامنفصلا عن الحياة من حوله إنما هو موجة فى تيارهاالمتدفق تهمس فى أعماقها بأسراره وتحكى قصته الأزلية الخالدة ..

والأمر فى رأيى إنما هو الشعور والإحساس أو بعبارة أخرى أصالة التجربة الشعرية وما تفجره فى الأعماق من طاقة إبداعية هائلة وما تثيره من رؤى وأطياف وألوان وأضواء وظلال وصور وأخيلة ومعان وأفكار ... وبهذا وحده تسمو الشاعرية وتتألق ويسرى فيها ذلك الروح العجيب الذى يصمد بها فى وجه الزمن متخطيا معها كل الحواجز والموانع والسدود بما يثيره فى كل نفس من شعور بالحياة وإحساس بالجمال وبالمتعة الفنية التى تعطى للحياة سحرا وتكسبها عبيرا وتمنحها طاقة عجيبة بغيرها لا تساوى هذه الحياة أعباءها وعناءها ...

والنفس الإنسانية التى تلتمس هذه النواحى المضيئة من حياة الكون هى دائما نفس قوية لا تقف فى وجهها الحوائل ... هى نفس تحلق فوق الاعتبارات الكونية جميعا لترى مكان الحق والحرية والخير والجمال وتكشف للناس ما خفى عليهم من جوانب النفوس وأسرار الكون وغايات الحياة .[1] ولا أكاد أظن أننى أذهب بعيدا إذا عرضت لأهم قضية من القضايا الأدبية المعاصرة التى تشغل خواطر الأدباء والنقاد فى عصرنا الحديث وأعنى بها قضية الحرية الأدبية والمطالبة بتحقيقها إذا ما أردنا للأدب خيرا ورواجا واردهارا . وقد تبدو هذه القضية المعاصرة بعيدة عن الشعر العباسى ومدارسه التجديدية لكننى أرى أن هذه الحرية الأدبية التى ينادى بها دعاة التجديد والثورة على القديم ... هذه الحرية قد تمثلت بأروع ما يمكن أن تتمثل فى الشعر العباسى على أيدى رواده وفحوله أرباب الإبداع والتجديد فقد كانت لهم مع الشعر انطلاقة لم تقف عند حد ، وكان لهم من البديع والتجديد ما فاق كل وصف فأبدعوا وجددوا وأحسنوا وأجادوا وخرجوا على ما كان مألوفا وأتوا بالطريف لا تدرك أثاره ولا يشق غباره ، وكان تجديدهم يشمل الأفكار والمعانى والألفاظ والأساليب والصور والأخيلة والأوزان والقوافى ... لقد كانت الحرية الأدبية عند هؤلاء الأقدمين من الشعراء العباسيين تعتمد على علم واسع ومعرفة شاملة وثقافات متعددة وحضارة مزدهرة ومدنية متقدمة وحياة نامية ... ولم تكن مجرد حرية جوفاء تسمع لها قعقعة ولايرى من ورائها أى أثر ، فقد انطلق الشعراء العباسيون فى مجال التجديد والإبداع بحرية مطلقة ينهلون من الجديد ويعتصرون رحيق كل فكر وثقافة وهم مع ذلك يتأثرون بالقديم ويتزودون من تراثه ... ولم يزدروا هذا القديم كما يدعى الدكتور طه حسين .[2] بل إنهم

---

(١) ثورة الأدب لهيكل ص ١٧ .

(٢) حديث الأربعاء جـ ٢ ص٢٢ ط : دار المعارف .

متصلون اتصالا وثيقا بهذا التراث وإنهم ليحملون بين جوانحهم قلوبا مليئة بحب التجديد والرغبة فيه . (١)

وقد رأينا شاعرا كأبى العتاهية يصرح بأنه أكبر من العروض ويمضى على منهجه السهل الميسور حتى ليكاد كلامه كله يكون شعرا . ورأينا شاعرا كبشار بن برد يقرر بأنه أشعر الإنس والجن . كما رأينا شاعرا كأبى نواس يبدع فى تعبيره ويجارى عصره فى ألفاظه وأساليبه ويجدد فى مطالع قصائده ويسخر من الوقوف على الأطلال ومساءلة آثار الديار وينادى بمعايشة عصره والالتزام بوسائله ومقومات الحياة فيه واصطناع لغة عصرية يفهمها الناس وتعبر عن مشاعرهم وأحاسيسهم وإن كان نزوعه إلى سحر الألباب بصورة مفاجئة من الخيال يحمله كثيرا على تجاوز حدود الغلو فى الوصف والتشبيه . كما بين ذلك زكى مبارك فى كتابه الموازنة بين الشعراء . (٢) ولذلك تعرض أبو نواس لهجوم عنيف من جانب علماء اللغة واضطر هو إلى هجاء بعض اللغويين المتزمتين حين عابوا شعره . (٣)

وقد اخترع هؤلاء المجددون المبدعون فى الشعر العربى صورا موسيقية عديدة ، من مثل السلسلة والدوبيت والمواليا والقوما وكان وكان والزجل . ومضوا على طريق الإبداع والتجديد لا يعبأون بلوم ولا يبالون بنقد . وقد عبر طه حسين عن هذه الحرية بقوله " ولكن تغير الحياة أيام بنى العباس لم يحدث الشك والمجون وحدهما ولم يغير الشعر من هذه الناحية فحسب وإنما أحدث أيضا شيئا آخر وغيَّر الشعر من ناحية أخرى أحدث سهولة فى التعبير عما فى النفس لأنه أطلق

(١) مذاهب الأدب لخفاجى ص ٢٥ .
(٢) ص ٦٠ ، ٦٣ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

للعواطف والأهواء حريتها فانطلقت الألسنة بوصف هذه العواطف والأهواء ففكر الناس كما أحبوا وعاشوا كما أحبوا .. أصبحت العواطف حرة فأصبحت الألسنة حرة ... وكثرالافتتان فى اللذات وكثر معه الافتنان فى القول .. " .[1] ويقول فى موطن آخر : " أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر فى حياته المعنوية والمادية بل فى تصوره وشعوره وتعبيره عن هذا التصور والشعور عواطف حرة يصنعها كلام حر ومعان سهلة مألوفة لم يبحث عنها صاحبها ولم يطل البحث وإنما وجدها فى نفسه فأظهرها فى لفظ لم يتكلف تخيره ولا نظمه ولا تنسيقه .. "[2] .

وعلى هذا النهج ينبغى أن تنطلق حركات التجديد فى شعرنا العربى الحديث ولن يتحقق ذلك إلا على أيدى هؤلاء الذين يرتكزون على أسس قوية من تراثهم التليد وأدبهم العريق ودعائم وطيدة من ثقافة الغرب وحضارته بلا نفور من هذا القديم ولا ارتماء كلى فى أحضان هذا الجديد ... يقول الدكتور أحمد زكى أبو شادى : " إنه إذا كنا نؤمن بالمذهب الفنى الشامل فى الشعر الذى ينتظم فى الواقع مذاهب فرعية فليس من مذهبنا طبعا أن نغفل الشعر الكلاسيكى القديم أو المجدد ولاما عداه من فن أصيل وإنه لجميل أن يشمل الشعر عظائم ودقائق كثيرة ، لنا أن نحتفى بكل لون من ألوان التفكير والتعبير البشرى وعلينا أن نناهض " الديكتاتورية " الأدبية والفنية لأنها فى النهاية بمثابة سم للأدب والفن "[3] .

ويقول الدكتور هيكل : " وكان طبيعيا أن تبدأ النهضة بنشر اللغة وإحياء

---

(١) حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٤٠ .
(٣) رائد الشعر الحديث لخفاجى ص ٩٨ .

أدابها القديمة وتعليم الناس أصول التعبير بها ليمكن بعد ذلك أن تنبعث حياتها قوية وأن يكون فن الأدب العربى بحيث يحيط بالحياة والوجود وما فيهما من حق وجمال " . (١)

ويقول أيضا : " ولذلك أخفق المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر اللغة وماضيها ورجع أكثرهم إلى الدائرة التى يعمل فيها المجددون بعقل وحكمة حتى قطعوا منها فى سبيل إحياء اللغة العربية شوطا بعيدا " . (٢)

هذه هى أقوال دعاة التجديد المتحمسين له الثائرين على التقليد والجمود عرفوا للتراث قدره وللقديم فضله فأشادوا بالأقدمين ونهضوا مع المجددين .

ويمضى الزمن وتتطور أساليب الحياة وتتوالى حركات الإحياء والإبداع والتجديد ، وتبقى بعد ذلك لمدارس التجديد فى الشعر العباسى فى القرنين الثانى والثالث أهمية بالغة ومكانة ممتازة ودور عظيم فى نهضة الشعر العربى ودعم مذاهبه الفنية .

---

(١) ثورة الأدب ص ٣٠ ، ٣١ .
(٢) نفسه ص ٥١ .